"عامل من بنها!"

بكَّرَ اليوم في الخروجِ إلى العمل... لم ينتظر حتى تشرقَ شمسُ الشتاءِ الكليلةِ التي تتأخرُ لما بعد السادسة... بالتأكيد كانَ وراءَ الأمرِ سببٌ... حتمًا سيكونُ يومًا مشهودًا إذ تنتظرُه في عملِه زيارةُ السيدِ مديرِ الإدارةِ... كانَ قد ودَّعَ العملَ أمس في ساعةٍ متأخرةٍ من النهارِ بعد أن أتمَّ الإعدادَ لتلك الزيارة، واليومَ يستقبلُه متأهبًا مستعدًا لتلك الزيارةِ المرتقبة...

ولأولِ مرَّةٍ منذُ أن التحقَ بالعملِ في هذا الموقع يكون على عجلةٍ من أمرِه، وهو المعتادُ دومًا على الوقوف بباب المصلحة الحكومية قبل موعد الحضور بفترة متجنبًا ازدحام المواصلات، مما كان يجعله عرضةً للإحراجِ يلمحه باديًا على قسمات وجه عم (جلال) مسئول الأمن بالعمل وهو يستقبله قبل زملائه بزمنٍ، ذلك الرجل الذي ربما قد ضجر بهذا الذي يزيد من ساعات عمله التي حددتها له الحكومة زيادة غير مدفوعة الأجر، ويكاد يقرأ أفكاره:

"يا فتَّاح يا عليم! يا رزاق يا كريم! انت كنت بايت في الشارع؟!"

واليوم لا مبرر لهذا الضجر والمسئول الكبير في طريقه إليهم، والاستعداد يجري منذ أمس وحتى الآن على قدمٍ وساقٍ...

وصل إلى موقف "الميكروباص"... فتَّشَ بعينيه عن "الميكروباص" المُعَدُّ للانطلاق! فرأى سائقه ينادي رغم أن السيارة كانت مكتظة، وكعادةِ هؤلاء النفرِ من السائقين لم يُفْصِحْ واحدٌ منهم عن السيارة التي تليها طالما كان هناك مقعدٌ لم يزل شاغرًا في الأولى... وما هي إلَّا لحظات حتى امتلأت السيارة "على تُمَّةِ عينها"... وأُشيرَ إلى "الميكروباص" الذي حلَّ مكان سابقه... ركبه، وأخذ فيه مركز الصدارة، وانتقى مكانًا متميزًا بجوار الشباك الوحيد المفتوح به... وفي التو ازدحمت السيارة بالركاب وأُغلِقَ عليهم بابها لتنطلقَ... تَجِدُّ في السير تحت عبء ازدحامها بركابها.. تكافحُ وعورةَ الطريقِ، وضعف لياقتها البدنية؛ فقد فضحها صريرُ المساعدين وما ترتكز به علي عجلاتها من سست..

وفي تصرُّفٍ لا إراديٍّ اعتادَ عليه، سَبَّقَ بتقديمِ الأجرةِ إلى جاره في المقعد... أسرعت بها يدُه قبل أن يتورَّطَ هو في جمع الأجرة من سائر الركاب، وهكذا جمع المتطوِّعُ الأجرة من الركاب جنيهًا واحدًا عن كلٍّ منهم، والحمد لله لا تزال على هيئتها رغم مرور عدة شهورٍ على فرضها!

تداولت الأيدي الأجرة في طريقها إلى السائق، فلم يهتم صاحبنا طالما أدَّى ما عليه، فلتذهب حيث شاءتْ لها الأقدار فقد أراحَ نفسَه من عبءِ

جمعها... وانفصل عن جيرانه الركاب يفكرُ فيما ستجرُّه عليه تلك الزيارة من خيرٍ أو شرٍّ...

قطع عزلةَ الصمتِ لديه صوتُ شجارٍ، وهكذا يتصاعد من كلمة، وربَّما إيماءة ليتفجَّر بركانٌ من غضبٍ... وخلال غبار الكلمات المتشابكة ما بين السائق وبين أحد ركاب عربته التقطت أذنا صاحبنا عباراتٍ كثيرة فسَّر منها سر الاشتباك... بدأت الحكاية بأن قدَّم الراكب ورقة فئة العشرين جنيهًا وقال:

- نفر واحد من عشرين...

فكان جواب السائق الذي بدا تقليديًّا بعض الشيء:

- ما فيش فكَّة... شوف فكَّة معاك؟

احتدَّ الراكب عليه قائلًا:

- وانا كمان مش معايا فكَّة! ما تفكَّها من معاك! اتصرف! مش ده شغلك؟!

انفجر السائقُ غاضبًا:

- أنا سوَّاق على عربية، مش صاحب كشك سجاير! ما قلتش ليه إن ما معكش فكَّة قبل ما تركب؟!

قال الشاب:

- أنا قولت لك قبل ما أركب أنا عايز أفك... بس انتَ كنت "عامل من بنها"...

وكأن العبارة الأخيرة قالب طوب نزل به الراكبُ الشاب على رأس السائق الكهل فزادت حدتُه فأوقف السيارة، ونزل وأنزل الشاب، تراشقا بالشتائم... لم يصل الأمر إلى التشابك بالأيدي... ثم صعد السائقُ العربة نتيجة نداءات الركاب المتعجلة الحانقة، لكنَّه صعد إليها وحده، وودَّعها الشاب بأقذع السباب...

انطلقت العربة وخمدت جذوة المشاجرة بانفصال طرفيها، ولا يزال السائقُ يتمتمُ في غيظ:

- أنا... "عامل من بنها"... أنا؟! هي دي التربية؟! واحد كبير زي والده ويقول له كده؟!

كانت هذه هي المرَّة الأولى التي يسمع فيها صاحبنا مثل هذه العبارة التي علقت بذهنه من تلك المشاجرة التي اعتاد على سماعها كغيرها وسرعان ما تُنسى عباراتها... "تدخل من أذنٍ وتخرج من الأخرى"... إلَّا هذه العبارة التي عصفت بعقل السائق وأخرجته عن بلادة طباعه... أجهد عقله في محاولةٍ ليتوصل إلى معناها... بينما لا يزال الصمتُ يخيم على جيرانه

الركاب الذين كانوا في حلٍّ من تلك المهاترات فكلٌّ له ما يشغله فيما يتوقعه من يومِ عمله وما يجرُّه عليه من مشقة، وكان هو في شغلٍ أكبر منهم...

فكرَ أن يسألَ السائق عن معنى العبارة، لكنَّه تداركَ أمره فلربَّما صار إلى ما صار إليه ذلك الشاب...

وصلَ "الميكروباص" أخيرًا إلى الموقف، فنزل دركاته القليلة حتى استوت قدماه على الطريق... سأله أحد المارة:

- "الميكروباص" ده رايح فين لو سمحت؟

لم تزل العبارة التي سمعها في "المكروباص" تتردد أصداؤها في ذهنه فبادرته يهذي بها في خفوتٍ، ويكلم نفسه... فميَّزَ السائل منها كلمة... "بنها"... فقال متسائلًا في حنقٍ المتعجب:

- بنها؟! انت بتهزر؟!

تنبَّه إلى ردِّ فعل السائل الذي قاده إلى أن تذكَّر السؤال الذي طرحه عليه من فوره...

أعدَّ له جوابًا، لكن بعد أن ابتلع ذلك الزحامُ الرجلَ، وغاب عن عينيه!

وفجأة نسي كلَّ شيءٍ ولم يذكر إلَّا الزيارة المتوقعة للسيد المهم وهو يتمتمُ مستنكرًا:

- ربنا يستر... إيه الفال ده؟!